المنظومة
ALMANDUMAH

العنوان:	الفلسفة الأخلاقية لدى ابن حزم الأندلسي
المصدر:	مجلة الزهراء
الناشر:	جامعة شريف هداية االله الإسلامية الحكومية - كلية الدراسات الإسلامية والعربية
المؤلف الرئيسي:	أوكتافيانو، ويلي
المجلد/العدد:	مج6, ع1
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2007
الصفحات:	37 - 49
رقم MD:	1152413
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	IslamicInfo, AraBase
مواضيع:	الفلسفة الإسلامية، الفلسفة الأخلاقية، مكارم الأخلاق، تاريخ الإسلام، ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد، ت. 456 هـ.
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/1152413

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

للإستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب إسلوب الإستشهاد المطلوب:

إسلوب APA

أوكتافيانو، ويلي. (2007). الفلسفة الأخلاقية لدى ابن حزم الأندلسي.مجلة الزهراء، مج6, ع1، 37 - 49. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/1152413

إسلوب MLA

أوكتافيانو، ويلي. "الفلسفة الأخلاقية لدى ابن حزم الأندلسي."مجلة الزهراءمج6, ع1 (2007): 37 - 49. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/1152413

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

الفلسفة الأخلاقية لدى ابن حزم الأندلسي

ويلي أوكتافيانو

Abstrak

Ibnu Hazm al-Andalusi adalah salah seorang ulama terkenal di dunia Islam, khususnya di belahan dunia Islam bagian barat. Beliau adalah pengikut utama mazhab Fiqh Az-Zahiriyah. Dia seorang ulama yang sangat teguh dalam pendiriannya terutama yang berkaitan dengan prinsip-prinsip ketauhidan, juga seorang yang mengutamakan logika dan pengetahuan dalam argumentasinya. Pemikirannya yang berkaitan dengan akhlak Islamiyah sesuai dengan prilakunya. Tulisan ini mengupas sekelumit pemikiran Ibnu Hazm tentang akhlak Islamiyah.

Kata kunci: *Akhlak Islamiyah*: akhlak dalam Islam, *as-suluk*: etika, *al- fadhail*: keutamaan, *thard al-hammi*: membuang kegelisahan

المقدمة

إن مكارم الأخلاق وتطبيقها في الحياة الإنسانية –سواء كان أفرادا أم مجتمعا– أمر مهم وضروري. وقد كتب وألف كثير من العلماء قديما وحديثا عن هذا الموضوع. ومن أهدافهم في الكتابة والتأليف هي إيضاح أهمية مكارم الأخلاق ودفع الناس ليتخلقوا بها. ومن هذا الكتب << الأخلاق والسير في

---

* مدرس العقيدة الإسلامية بكلية الدراسات الإسلامية والعربية جامعة شريف هداية الله الإسلامية الحكومية جاكرتا

مداواة النفوس>> للإمام ابن حزم الأندلسي ت. ٤٥٦ هـ. وفي هذه المقالة سنتحدث عن الفلسفة الأخلاقية لدي ابن حزم من خلال كتب التي ألفها.

ولم يعرف تاريخ الإسلام والفقه من قبل ابن حزم رجلا كتب في الحب وأحوال العشاق بمثل هذه الرقة والعذوبة والصراحة، وجادل الفقهاء في الوقت نفسه بكل تلك الحدة والعنف والصرامة.

احتمعت فيه صفات متناقضة، لين الطبع وسعة الأفق وعذوبة النفس، مع التشدد والتضييق وسرعة الانفعال، والتعصب لكل ما يعتقد أنه حق، ورفض ما عداه... فهو يناقش كل وجوه النظر في المسائل، حتى إذا اطمأن إلى رأي، أدان كل مخالفة بلا رحمة، وسخر بهم، وكانت لهم الاتهامات لا يراعى لهم فضلا ولا وقارا.

من أجل ذلك أحبه بعض الناس حتى تحدوا فيه كل حكام عصرهم، وكرهه آخرون حتى أهدروا فيه تعاليم الدين ومبادئ الأخلاق إذا أغروا به السلطان...

ويعد ابن حزم من الأفذاذ الذين يصعب علميا إرسال الحكم فيهم حاسما، باعتبار أن ما بين أيدينا من مؤلفات له –وهو النزر القليل– إذا ما قورن بما هو مخطوط لم يحقق، أو في عداد المفقود، فإن أمكن تقدير ما نشر منها – وهو قليل– نجده مثال عالم المتمسك بعقيدته، المتحمس لمنهجه الظاهري ضد خصومه، المخلص لفكره دون تعصب، المؤمن بدور العقل في المعرفة إذ يقول: "من أبطل العقل فقد أبطل التوحيد.. إذ لو لا العقل لم يعرف الله عز وجل"[١]، المناصر للحرية في التفكير، المتميز بأسلوبه الجدلي في مناقشة معارضيه، الحريص علي تصوير أفكاره عند تمثل أسرار النفوس، والنصح بالفعل الفاضل والخلق الحميد، الدقيق في انتقاء الكلمات عند صياغة مكنون فكره، متعمدا علي المنطق في عرض أفكاره.

ترجمة ابن حزم

هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن سفيان بن يزيد. وكان كنيته أبو محمد، وهي التي يعبر بها في كتبه، وشهرته ابن حزم. لا يكاد الباحث الدارس يجد عالما عظيما قد عرف وقت ميلاده بطريق التعيين، ولكن يعرف وقت وفاته بالتعيين. لأنه ولد مغمورا ومات مشهورا. فكان وقت الولادة غير معلوم علي وجه التحقيق ووقت الوفاة كان معلوما.إن ابن حزم علي غير ذلك، فقد عرف وقت ولادته بالتأكيد، وعين ليس بالسنة فقط بل بالشهر واليوم وجزء اليوم الذي ولد فيه. وذلك لأنه كتب ميلاده لأحد معاصريه في رسالة أرسلها إليه، فقد كتب إلي تلميذه القاضي صاعدا، أنه ولد

في أيام شهر رمضان سنة أربع وثمانين وثلاثمائة (٣٨٤) هجرية، وكانت ولادته في تلك الليلة بعد الفجر وقبل طلوع الشمس.

وإن ذلك التعيين يدل علي عناية أسرته بتحرير تاريخ ولادة آحادها، وإلا ما تسني لابن حزم أن يعرف ميلاده بذلك التعيين الدقيق ويدل علي تحضر الأندلس، وعناية أهليها بأخبار مواليدها، وعلي رفعة شأن تلك الأسرة حتى كانت تعنى هذه العناية.[٢]

العصر الذي عاش فيه ابن حزم الأندلسي.

ولد ابن حزم في عهد (هشام المؤيد)[٣] الذي تولي بعد (الحكم المستنصر بالله)[٤] (ت ٣٦٦ هـ)، وهو غلام في العاشرة من عمره، وكان ضعيف العقل، محدود الذكاء، خائر العزيمة، حجبه في القصر واستبد بالأمر دونه المنصور بن عامر الذي كان من وزرائه (أحمد بن سعيد) والد ابن حزم.. وقد استطاع أن يقضي علي الخصوم ويسيطر علي الحكم حتى دانت له الأندلس كلها وأمنت به ولم يضطرب عليه شيء منها أيام حياته لعظيم هيبته وسياسته.[٥]

وعاش في عصر نهضت فيه الثقافة وعلت راية العلم ووجد العلماء أجلاء جمعوا بين الثقافات المتعددة ألفوا الكتب القيمة. ولعل الفضل في تلك الروح العلمية التي أظلت بلاد الأندلس ترجع إلي عبد الرحمن الناصر الذي تولي نحو خمسين سنة، الذي جعل قرطبة كعبة الفنون وكان محبا للعلوم ومكرما لأهلها، واهتمامه بالعلم والمعرفة. وكان هو نفسه عالما موسوعيا يقضي ساعات طويلة في مكتبته يقرأ وقلمه في يده يعلق علي ما يقرأ، وكل ما تجد كتابا في خزانته من أي كان، إلا وله فيه النظر، يكتب فيه بخطه إما في أوله وأما في الأندلس، وأعطي فقهها، المالكية لونا من الامتياز الطبقي، على التنكيل بكل مخالف في مجال يسمح الإسلام فيه بالاختلاف.

ولم يكن بالأندلس من المذاهب الإسلامية -غير مالك- وقليل من الشافعية، والظاهرية، بالإضافة إلى منتحلي الفرق الكلامية وعلي رأسهم جماعة ابن مسرة والمعتزلة، وأصحاب الأديان الأخرى كاليهود والنصارى والمتزندقين على اختلاف مشاربهم، وكل هؤلاء شكلوا الحياة الاعتقادية للأندلس خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة، ولم تخل منهم عاصمتها قرطبة.[٦]

نشأته وحلاته وفاته

نشأ ابن حزم نشأة تحوط بها النعمة، وتلازمه الراحة والطرف في قصر أبيه الوزير في الجانب الشرقي من قرطبة بالقرب من قصر الزاهرة في مدينة الزهرة التي اختطها المنصور وانفق في تزيينها الأموال الطائلة حتى أصبحت

مناخ عشاق الهدوء والعلم. وذلك شأن أبناء الوزراء والأمراء الذين يجدون كل الوسائل المتع والبذخ مسيرة لهم، فلا ضيق في رزق ولا حاجة إلي مال...

إذا قد نشأ ابن حزم أكتاف أبيه الوزير وامضي حياته الأولى حتى الخامسة العشر من عمره لا يعرف أستاذا يتلمذ علي يديه ولا رفاقا يلعب معهم، وإنما هي فترة قضاها بين حرم القصر، وظل محجوبا داخله حتى بلغ الشباب. أما قبل ذلك، فالنساء وحدهن بطانته وصحابته وأستاذته. لذلك نشأة خبيرا بأخلاقهن، وشهادة ذلك بأنه قد قال: "ولقد شاهدت النساء، وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيرى، لأني ربيت في حجورهن ونشأت في أيديهن، ولم أعرف غيرهن ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب وحين نقبل وجهي، وهن علمنني القرآن وروينني كثيرا من الأشعار ودربنني في الخط، ولم يكن وكدي وإعلام ذهني مذ أول فهمي، وأنا في سن الطفولة جد،[٧] إلا تعرف أسبابهن، والبحث عن أخبارهن وتحصيل ذلك. وأنالا أنسي شيئا مما أراه منهن، وأصل ذلك غيرة شديدة طبعت عليها، وسوء ظن في جهتهن فطرت به، فأشرفت من أسبابهن علي غير قليل.[٨]

فهذه الصورة من حياته في قصر أبيه في عهد صباه، فقد كانت في بيئة ترهف الحس وتفتن النفس، مشحونة بألوان المغريات، ولكنها مع ذلك بيئة تسيطر عليها أوامر الدين وتعاليم الخالق، إذ كان بيت ابن حزم من البيوت المحافظة الأخذة بتقاليد التصون، على أنه رغم وجوده بين جواري القصر، ظل ظاهر الذيل عفيفا لحسن تربيته وللرقابة التي كانت مفروضة عليها

تلك هي المرحلة الأولى من حياة ابن حزم، وهي مرحلة تمتد خمسة وعشرين عاما مختلفة الأطوار، ذاق فيها ابن حزم حلو الحياة ومرها.

تعددت رحلات ابن حزم إلي المدن المختلة من بلاد الأندلس، وكان أكثر هذه الرحلات يصاحبها القلق والاضطراب، إذ كان مضطرا في كثير من تلك الأسفار ولم يكن مختارا. وإن كان من الآثار التي تركها، ما يدل علي رغبة كانت تجيش في نفسه لزيارة المشرق، حيث كانت بغداد قبلة العلوم وأمنية المتمني من المفكرين والعلماء لينهوا من علمها ويجلسوا علي شيوخها.

ومن المدن الأندلسية التي رحل إليها ابن حزم –وكان لها أثر بالغ في حياته الفكرية– مدينة المرية التي ذهب إليها عندما وقع انتهاب جند البربر لمنازل ابن حزم في الجانب الغربي بقرطبة وسكني مدينة المرية.[٩]

وبعد استقرار دام ثلاث سنوات بالمرية نفاه صاحبه الخيران إلي حصن القصر بإشبيلية حيث عاش شهورا سعيدة، ثم هاجر منها إلي بلنسية لأعراض سياسية وفي نهاية هذا الشوط الأول عاد إلي قرطبة.

وأما بلاد التي رحل إليها في نصف الأخير من حياته بعد أن ترك الوزارة وتفرغ للعلم، فقد كان بسبب حدته في الرأي –أو بتعبير ابن حيان–

معرفته بسياسة العلم. فذهب في أول أمره إلي شاطبة، ثم انتقل إلي القيروان بالمغرب حيث كان يناقش علمائها، ويتبادل معهم وجهات النظر المختلفة. وقد رحل أيضا ميورقة التي كانت تخضع لولاية أحمد بن رشيق، ويصفه المؤرخون بأنه كان يميل إلي الحديث والفقه، وذو هيبة مفرطة وتواضع وحلم عرف به مع المقدرة.[١٠]

وفي ميروقة حدثت المناظرات بينه بين أبي الوليد الباجي الذي ارتحل إلي المشرق وتعلم فيه علم الكلام والجدل والفقه والحديث وغيره ثم عاد إلي الأندلس فوجد (لكلام ابن حزم طلاوة إلا أنه كان خارجا عن المذهب ولم يكن بالأندلس من يستغل بعلمه، فقصرت ألسنة الفقهاء عن مجادلته وكلامه، وتسمه علي رأيه جماعة من أهل الجهل... ورحل بجزيرة ميروقة فرأس فيها وتبهه فيه، فلما قدم أبو الوليد، كلموه في ذلك فدخل إليه وناظره وشهر باطله، وله معه مجالس كثيرة. وقد استطاع الباجي إجلاء أبي محمد عن بعد أن استعان عليه بأميرها الذي تولي بعد ابن رشيق، وحرض عليه الجماهير.. ولم تذكر كتبٌ كتب التاريخ ولا كتب التراجم إلي أين غادرها. وإن كان بعض الباحثين[١١] يقول أنه ذهب إلي أشبلية حتى استقر به المقام في نهاية المطاف إلي قريته، التي كانت ملكه وملك سلفه من قبل ... وهناك أمضي بقية حياته لقي ربه.[١٢]

توفي الإمام ابن حزم –كما يذكر ابن خلكان– في آخر نهار ليلتين بقيتا من شعبان سنة ست وخمسين وأربعمائة ٤٥٦ هـ في بادية لبله، وقيل أنه توفي في منت ليشم وهي قرية ابن حزم رحمه الله.[١٣] وكان عمره اثنين وسبعين سنة.

روافد منهج ابن حزم في دراسته في الأخلاق.

يقول ابن حزم: "لا تبذل نفسك إلا فيما هو أعلى منها، وليس ذلك إلا في ذات الله –عز وجل– وفي دعاء إلي الحق، وفي حماية الحريم، وفي دمع هوان لم يوجبها عليك خالقك تعالي — وفي نصر مظلوم، وباذل نفسه في عرض دنيا كبائع الياقوت بالحصى."[١٤] ويقول: "كانت في عيوب، فلم أزل بالرياضة، وإطلاعي علي ما قالت الأنبياء – صلوات الله عليهم– والأفاضل من العلماء المتأخرين والمتقدمين في الأخلاق وفي آداب النفس، أعاني مداواتها حتى أعان الله –عز وجل– علي أكثر ذلك بتوفيقه ومنه، وتمام العدل، ورياضة النفس، والتصرف بأزمة الحقائق، وهو الإقرار بها ليتعظ بذلك متعظ يوما إن شاء الله."[١٥] وإني لا أبالي فيما اعتقده حقا عن مخالفة من مخالفته، ولو أنهم جميع من علي ظهر الأرض، وإني لا أبالي موافقة أهل بلادي في كثير من زيهم الذي قد تعودوه لغير معنى، فهذه الخصلة عندي من أكبر فضائلي التي لا مثيل لها.[١٦]

يستفاد من هذه الأقوال أن ابن حزم يرسم أسلوبه في دراسته للأخلاق محدد الداء، واصفا له الدواء، ويعلن في جرأة أنه لا يبالي مخالفة من يخالفه فيما يعتقد أنه حق لا يتعارض مع مصادر الإلزام الأخلاقية الإسلامية، ويمكن استخلاص روافد منهجه في ثلاث هي:

١. القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.
٢. العلوم الفلسفية التي عرفتها الأندلس، اليونانية منها والهندية والفارسية والتي ترجمت إلى اللغة العربية، وكذلك ألوان العلوم والثقافة في المشرق العربي علاوة على دراية ابن حزم باللغة اللاتينية والأعجمية، وإلمامه بالملل والأهواء والنحل.
٣. معايشته للتجربة الأخلاقية والمتمثلة في مشاهداته الحيوية وتجاربه الخاصة التي قامت على الاستقراء والتتبع.

غرض ابن حزم في دراسته للأخلاق

وأن ابن حزم يعيش في عصر انحلال واضطراب سياسي، تصدمه وتثير أعصابه، وتجعله في ضيق مما يشاهد ويلاحظ، فيأخذ في الوصف والسرد والتصوير ورواية القصص التي يعرها عن مجتمعه.[١٧] وهذا هو السبب في دراسته للأخلاق.

والثابت من دراسته للأخلاق إبراز جانبين أساسيين يمثلان محور علم الأخلاق بالمفهوم الحديث وهما جانب نظري وجانب عملي. أما بالنسبة للجانب النظري فتعلق بالتحديد أصول الفضائل وأنواعها والجانب العملي يتعلق بقواعد تطبيق وممارسة تلك الفضائل. والغرض منهما هو معرفة الفضائل وترجمتها في السلوك، وعلاوة على إصلاح الأخلاق الفاسدة ومداواة علل النفوس.[١٨]

يقول ابن حزم: "وإنما يحكم في الشيئين من عرفهما، لا من عرف أحدهما ولم يعرف الآخر."[١٩] والمعرفة هنا تتضمن الجانبين النظري التأملي والعلمي التطبيقي "فإذا تعقبت الأمور كلها فسدت عليك، وانتهيت في آخر فكرتك باضمحلال جميع أحوال الدنيا إلى أن الحقيقة إنما هي العمل للآخرة فقط، لأن كل أمل ظفرت به فعقباه حزن، إما بذهابه عنك، وإما بذهابك عنه، ولا بد من أحد هذين الشيئين، إلا العمل لله -عز وجل- فعقباه على كل حال سرور في عاجل وآجل. أما العاجل فقلة الهم بما يهم به الناس، وأنك به معظم من الصدق والعدو، وأما في آجل فالجنة."[٢٠]

فابن حزم المتأمل في أصول الفضائل صاحب المشاهدات الحياتية والتجارب الخاص المستقرئ لظواهر الأخلاق المجتمعية في بيئته يحدد -بعد

الحيض وتأييد بالمشاهدة- غرضا واحدا يستوي في استحسانه جميع الناس، ويسعون مساعي مختلفة في طلبه كل بحسب طاقته إذ يقول: "طلبت غرضا يستوي الناس كلهم في استحسانه، وفي طلبه، فلم أجده إلا واحدا، وهو طرد الهم. فلما تدبرته علمت أن الناس كلهم يستووا في إحسانه فقط، ولا في طلبه فقط، ولكن رأيتهم علي اختلاف أهوائهم ومطالبهم، وتباين هممهم، لا يتحركون أصلا إلا فيما يرجون به طرد الهم، ولا ينطقون بكلمة أصلا إلا فيما يعانون به إراحته عن أنفسهم، فمن مخطئ وجه سبيله، ومن مقارب للخطأ، ومن مصيب وهو الأقل من الناس، في الأقل من أموره، فطرد الهم مذهب قد اتفقت الأمم كلها مذ خلق الله تعالي العالم إلي أن يتناهي عالم الابتداء ويعاقبه عالم الحساب."[٢١] فالقاعدة العامة التي يستخلصها ابن حزم هنا هي اشتراك جميع الناس في غرض واحد وهو طرد الهم، ويقدم من الأدلة ما يؤكد صحتها -وفي ذات الآن يكشف عن درايته بطبيعة النفس البشرية مستفيدا من تجارب الآخرين الحياتية- فيصنف الناس حسب ما يؤثر كل منهم فمن الناس من لا همّ له فلا يعمل للآخرة، وفي الناس من أهل الشر من لا يريد الخير، ولا الأمن، ولا الحق، وفي الناس من يؤثر الخمول بهواه وإرادته علي بعد الصيت. وفي الناس ما لا يريد المال، ويؤثر عدمه علي وجوده ككثير من الأنبياء عليهم السلام، ومن تلاهم من الزهاد والفلاسفة، وفي الناس من يبغض اللذات بطبعه، ويستقص طالبها،... وفي الناس من يؤثر الجهل علي العلم، كأكثر من ترى من العامة وهذه هي أغراض الناس التي لا غرض لهم سواها.[٢٢]

والمستفاد من ذلك التصنيف أن لا واحد من الناس يستحسن الهم، فمهما تعددت مطالب الناس وتباينت سواء في اقتناء المال أو الصيت أو اللذات أو العلم إلخ... فإنما هي لطرد الهم. ولم يتوقف ابن حزم عند هذا الاستنتاج الصادق، وإنما يحدد أسلوب العلاج والذي ينتهي إلي مطلب واحد محدد وهو العمل للآخرة إذ يقول: "وجدت العمل للآخرة سالما من كل عيب، خالصا من كل كدر موصلا إلي طرد الهم علي الحقيقة."[٢٣]

ويدلل علي ذلك أيضا باستقرائه للواقع ومشاهدته فيقول: "ووجدت العامل للآخرة إن امتحن بمكروه في تلك السبيل لم يهتم، بل يسر، إذ رجاؤه في عاقبة ما ينال به عون له علي ما يطلب، وزائد في الغرض الذي إياه يقصد، ووجدته إن عاقه عما هو بسبيله عائق لم يهتم، إذ ليس مؤاخذا بذلك، فهو غير مؤثر فيما يطلب. ورأيته إن قصد بالأذى سر، وإن نكبته نكبة سر -وإن تعب فيما يسلك فيه سر-، فهو في سرور متصل أبدا، غيره بخلاف ذلك،[٢٤] وقد يتخيل للذهن أن ما جاء في هذا النص السابق إنما هو نتاج تجربة شخصية بالنياس إلي ما مر به ابن حزم.

إلا أن المستفاد من ذلك هو ابن حزم يسعى علي تقنين ضابط موضوعي للفضيلة الخلقية وفق مشاهداته واستقرائه للواقع المعاش ويمكن تحديد ذلك الضابط في محورين:

الأول: طرد الهم، وهو مذهب قد اتفقت عليه الأمم كلها إذ ليس في العالم مذ كان إلي أن يتناهى أحد يستحسن الهم، ولا يريد طرده عن نفسه.

الثاني: التوجه إلي الله عز وجل، وذلك بالعمل للآخرة فمطلوب النفس البشرية واحد وهو طرد الهم وليس له إلا طريق واحد وهو العمل لله تعالى.[٢٥]

ولما كان طرد الهم يحقق منفعة وسعادة لصاحبه فهذا المحور يذكرنا بمذهب المنفعة لدي أبيقور المتوفى ٢٧٠ ق م.[٢٦] إلا أن مفهوم المنفعة في نسق ابن حزم الأخلاقي يباين طبيعتها لدي أبيقور، فإذا كانت التشابه ظاهريا ولفظيا مع أبيقور، إلا أن المذهبين يختلفان اختلافا جوهريا باعتبار أن المنفعة لدي أبيقور غاية، وأما لدي ابن حزم فهي وسيلة لتحقيق غاية، وإذا كان معيار الخير والشر هو المنفعة فإن الفعل الذي يعود بالنفع علي صاحبه فهو خير، والفعل الذي فيه ألم لصاحبه فهو شر، ولكن، أي المنافع التي تمثل الخير كله لدي ابن حزم؟ إنها المنافع المعنوية للفوز بالآخرة إذ يقول: "رأيت أكثر الناس، إلا من عصم الله تعالى وقليل ما هم، يتعجلون الشقاء والهم والتعب لأنفسهم في الدنيا، ويتحققون عظم الإثم الموجب للنار في الآخرة، بما لا يحظوا معه بنفع أصلا، ومن نيات خبيثة يضبُون عليها، من تمني الغلاء المهلك للناس وللصغار، ومن لا ذنب له، وتمني أشد البلاء لمن يكرهونه، وقد علموا يقينا أن تلك النيات الفاسدة لا تعجل.

وعليه فإن منهج الإنسان في سلوكه يحدد مستقبله الدنيوي والأخروي حسب توجهاته لطرد الهم فإما بفعل فاضل يجانب به الرذائل فيحقق له السعادة، وإما بسلوك تأنس نفسه فيه بالرذائل فيجانب به الفضائل والطاعات فيحقق له الشقاء.

وعليه يعرف ابن حزم السعيد والشقي من الناس فيقول: "السعيد من أنست نفسه بالفضائل والطاعات نفرت من الرذائل والمعاصي، والشقي من أنست نفسه بالرذائل والمعاصي ونفرت من الفضائل والطاعات."[٢٧] وبهذا المعنى نكون السعادة الحقيقة هي السعادة الأخروية.

فالمنافع المعنوية هي المقياس، فجلبها خير ودفها شر، ولما كان دفع الآلام المعنوية خيرا، وجلبها شرا، فإن الثابت أن دفع الهم من المنافع المعنوية، باعتبار أن الهم من الآلام النفسية وهو شر فدفعه خير.

والمستفاد أيضا من تعريفه للسعيد والشقي، مجانبته للفيلسوف اليوناني أبيقور إذ ينطلق من التسليم بضرورة الالتزام بالأخلاق الإسلامية، فمن أطاع ما أمر به الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، فقد نهج سبيل الفضائل وفاز

السعادة، ومن عصى وجحد أمر الله تعالى جلب لنفسه الشقاء وضل سواء السبيل فالاتجاه إلى الله تعالى هو النهج القويم لدفع الهم، وأن الفضائل كلها لا تستحق اسمها إلا إذا كان جانب الله تعالى واضحا في اتجاهها.

وهذا بدوره يؤكد أن ابن حزم لم يطلق العنان لتأملاته وفكره الوضعي بعيدا عن قواعد الأخلاق الإسلامية، فهو يعلم أن الإنسان تتنازعه الأهواء والرغبات الحسية وله فيها ما لسائر المخلوقات، وبالانقياد لها ينحط عن مكانته السامية، وبمجانبته لها بالحكمة والتمييز السليم ينجو ويحقق غايته في الالتزام بالقيم العليا المستندة إلى ما شرعه الله عز وجل، ويأتي في هذا المقام قوله تعالى: ﴿.....﴾(النازعات ٤٠-٤١).

وهو الرأي جامع لكل فضيلة، لأن نهي النفس عن الهوى هو ردعها عن الطبع الغضبي، وعن الطبع الشهواني، لأن كليهما واقع تحت موجب الهوى، فلم يبق إلا استعمال النفس للنطق الموضوع فيها، الذي به بانت عن البهائم والحشارات والسباع،[٢٨] ولكن تمييز النفس للفضائل ومعرفتها إياها لدى ابن حزم لا يعني فتح الباب أمام مقياس فردي للقواعد الأخلاقية، بل معرفة النفس بالفضائل لا يكفي لكي يكون الفرد على خلق بل لابد من الممارسة -إذ الدين معاملة- وهو هنا وإن كان يتلقى مع سقراط في كون الفضيلة هي المعرفة والتمييز، وبوساطتها تتحقق سعادة الإنسان، وأن هذه السعادة لا تأتي صدفة بل هي تحقيق بالعلم والفضيلة، إذ أن منفعة العلم في استعمال الفضائل عظيمة، وهو أنه يعلم حسن الفضائل فيأتيها ولو في الندرة، ويعلم قبح الرذائل فيجتنبها ولو في الندرة.[٢٩] فإن ابن حزم لا يذهب مذهب سقراط في رد الأحكام الخلقية على الأفعال الإنسانية إلى مبادئ عامة تتخطى الزمان والمكان.[٣٠] فإذا سقراط أول من توخى إيجاد مقياس ثابت تقاس به خيرية الأفعال وشريتها، وتؤدى بذلك إلى الاعتقاد بأن للخير أصلا ثابتا في نفس الإنسان، وهو الضمير عنده الذي يمثل دور الضابط والرقيب لأفعاله، والذي تزداد فاعليته كلما زادت معارف الإنسان فإن معرفة ابن حزم لطبيعة النفس البشرية وفهمه لأعماقه أدق -اعتمادا على النص القرآني- والسنة النبوية، إضافة إلى أن استقرائه ومشاهدته- أعم وأشمل، فالمرء لا يكون فاضلا حقا إلا إذا أتى الفضيلة عن علم، وليس معنى ذلك في مفهوم ابن حزم أن يتوقف المرء عن فعل الخير حتى يعلمها، فإن علم أنه خير فعله، علاوة أن الكثير مما يأتون الرذائل على معرفة تامة بضادها وهي الفضائل، فالمعرفة وحدها لا تكفي لكي يكون الإنسان فاضلا، فمن طلب الفضائل لم يساير إلا أهلها، ولم يرافق في تلك الطريق إلا أكرم صديق، من أهل المواساة والبر والصدق وكرم العشيرة، والصبر والوفاء والأمانة والحلم وصفاء الضمائر وصحة المودة، ومن طلب الجاه والمال واللذات لم يساير غلا أمثال الكلاب الكلبية، والثعالب الخلبة، ولم يرافق في تلك الطريق

إلا كل عدو المعتقد، خبيث الطبيعة."[٣١] والمستفاد من ذلك أن ابن حزم جانب سقراط في هذا المقام إذ نجد سقراط قد أهمل الجانب العلمي في حديثه عم نشر القيم الأخلاقية، بينما نلحظ تأكيد ابن حزم علي جانب الممارسة والتطبيق باعتبار أم سيادة الفضائل القواعد الخلقية يحتاج إلي علم يقترن بالعمل وفق هذا العلم. فالعمل الفاضل لا بد أن يصدر عن معرفة وتعقل، فالمعرفة بالفضائل فقط لا قيمة لها ما لم تجسد في سلوك فاضل. وعليه فالأساس في الالتزام بأخلاق الخير لدي ابن حزم أن يعرف الإنسان نفسه حق المعرفة، لأن معرفة الإنسان لنفسه تحول دون تجاوزاته لحريات الآخرين وحقوقهم، أو الإساءة إليهم، "فمن أساء إلي أهله وجيرانه فهو أسقطهم، ومن كافأ من أساء إليه منهم فهو مثلهم، ومن لم يكافئهم بإساءتهم فهو سيدهم، وخيرهم وأفضلهم"،[٣٢] وعليه فمعرفة المرء لذاته تحمله علي تقويم سلوكه وإصلاح عيوبه وانشغل بعيوب غيره فهو أسقط الناس وأوضعهم وفي ذلك يقول ابن حزم: "من خفيت عليه عيوب نفسه فقد سقط، وصار من السخف والضعة والرذيلة والخسة وضعف التمييز والعقل وقلة الفهم،"[٣٣] ويقول طوبي لمن علم من عيوب نفسه أكثر مما يعلم الناس منها".[٣٤] وبحسب طبائعهم تخلف سلوكيتهم، وهذه الآخرة يمكن لها أن تتبدل للأفضل باعتياد حميد العادات والتحلي بجميل الصفات، صحيح. "فالحكيم لا تنفعه حكمته عند الخبيث الطبع، بل يظنه خبيثا مثله"[٣٥]، ويقول في ذوي الطبائع الردية: "شاهدت أقواما ذوي طبائع ردية، وقد تصور في أنفسهم الخبيثة أن الناس كلهم علي مثل طبائعهم، لا يصدقون أصلا بأن أحدا هو سالم من رذائلهم بوجه من الوجوه، وهذا أسوأ ما يكون من فساد الطبع، والبعد عن الفضل والخير"[٣٦]، إلا أنه يؤكد أن الطبع كثيرا ما يغلب التطبع فيصعب علي المرء أن يضده، "ومن كانت هذه صفته (أي الطبع الردي) لا ترجي لها معافاة أبدا.[٣٧] وهكذا نجد أن فكر ابن حزم الأخلاقي لم يكن فكرا هامشيا، بل يفصح عن مفكر خبير بأعماق النفس البشرية وما تطويه من مشاعر وأحاسيس، فإذا به يرد الحوادث النفسية إلي بواعثها، عند تحليله للظواهر الأخلاقية فيكشف عن النواميس النفسية التي توجه الإنسان في عواطفه وفي تصوراته للقيم الأخلاقية إذ يقول: "من العجائب أن الفضائل مستحسنة ومستثقلة، والرذائل مستقبحة ومستخفة"[٣٨] وفي وصفه للمعجبين بأنفسهم يقول: "ولقد تسببت إلي سؤال بعضهم في رفق ولين عن سبب علو نفسه، واحتقاره للناس فما وجدت أن زاد علي أن قال لي" أنا حر لست عبدا لأحد فقلت له: أكثر ما تراه يشاركك في هذه الفضيلة، فهم أحرار مثلك... فلم أجد عنده زيادة، فرجعت إلي تفتيش أحوالهم ومراعاتهم، ففكرت في ذلك سنين لأعرف السبب الباعث لهم علي هذا العجب...فلم أزل أختبر ما تنطوي عليه نفوسهم بما يبدو من أحوالهم، ومن مراميهم في كلامهم فاستقر أمرهم علي أنهم يقدرون أن عندهم فضل عقل

وتميز رأي أصيل، ولو أمكنتهم الأيام تصريفه لوجدوا فيه متسعا، ولأداروا المماليك الرفيعة، ولبان فضلهم علي سائر الناس، ولو ملكوا مالا لأحسنوا تصريفه فمن هنا تسرب التيه إليهم وسري العجب فيهم."[٣٩]

وفي تقييم السلوك الأخلاقي يذهب إلي أنه "لا عيب علي من مال طبعه إلي بعض القبائح، ولو أنه أشد العيوب، وأعظم الرذائل، ما لم يظهره بقول أو فعل، بل يكاد يكون أحمد ممن أعانه طبعه علي الفضائل، ولا يكون معالبة الطبع الفاسد إلا عن قوة عقل فاضل"[٤٠]، ومعنى ذلك أن السلوك القبيح الكامن —مع أنه من أعظم الرذائل— إلا أنه لا يعاب مقارنة بالأداء، إذ لا يمكن المحاسبة علي سلوك لم يظهره صاحبه ويكون والحالة هذه الميال بطبعه إلي القبائح لا يظهرها أفضل ممن أعانه طبعه علي الفضائل لأنه استطاع أن يكبح جماح طبعه في إخفاء سلوكه، وفي تحليله للأنماط السلوكية الأخلاقية ودراسته لبواعث السلوك الأخلاقي، يبرز حقيقة لا جدال فيها وهي أ التغيرات الجسمية المصاحبة للانفعالات واحدة سواء كانت هذه الانفعالات سلبية أو إيجابية إذ يقول: "لو قال قائل: إن في الطبائع كرية، لأن أطراف الأضداد تلتقي، لم يبعد عن الصدق، وقد نجد نتائج الأضداد تتساوى، فنجد المرء يبكي من الفرح ومن الحزن، ونجد فرط المودة يلتقي مع فرط البغضة في تتبع العثرات، وقد يكون ذلك سببا للقطيعة عند عدم الصبر والإنصاف"[٤١] وفي ثنايا تحليله لتلك الأنماط الخلقية يبرز مراتب النصيحة، ومتى يتأكد أثرها ويمتدح ومتى يذم، وكأنه بذلك يقدم أسلوبا لمعالجة الأخلاق الفاسدة إذ يقول: "النصيحة مرتان: فالأولى فرض وديانة والثانية تنبيه وتذكر، وأما الثالثة فتوبيخ وتقريح، اللهم إلا في معاني الديانة، فالواجب علي المرء أن يزيد النصح فيها رضي المنصوح أو سخط، تأذي الناصح بذلك أو لم يتأذ... **وإذا نصحت فانصح سرا لا جهرا، وبتعريض لا بتصريح، إلا أن يسفهم المنصوح تعريضك فلا بد من التصريح، ولا تنصح** علي شرط القبول منك، فإن تعديت هذه الوجوه فأنت ظالم لا ناصح، وطالب طاعة وملك لا مؤدي حق أمانة وأخوة، وليس هذا حكم ولا حكم الصداقة، لكن حكم الأمير مع رعيته والسيد مع عبيده."[٤٢]

واللافت للنظر أن ابن حزم في تحليل للأنماط السلوكية الأخلاقية يفسر ويعلل ثم يعلق في عبارات شديدة الإيجاز في صورة حكم وأمثال، والغرض منها الموعظة الحسنة بخلاصة النتائج التي توصل إليها من تحليلاته وتجاربه ومن ذلك: "الناس فيما يعانونه، كالماشي في الفلاة، كلما قطع أرضا بدت له أرضون، وكلما قضى المرء سببا حدثت له أسباب"،[٤٣] ويقول: السعيد كل السعيد في دنياه من لم يضطره الزمان إلي اختيار الإخوان[٤٤] كثرة الريب تعلم صاحبها الكذب، لكثرة ضرورته إلي الاعتذار بالكذب، فيضري عليه ويستسهله.[٤٥] والله أعلم.

[١] ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، دار المعرفة، بيروت، المجلد ١، ٨٢/١.

[٢] محمد أبو زهرة، ابن حزم حياته وعصره وآراءه الفقهية، مطبعة مخيمرة القاهرة، ص. ٢٢.

[٣] هو هشام بن الحكم المستنصر، أمه أم ولد تسمي صبح، بويع بالخلافة سنة ٣٦٦ هـ، ولما تجاوز الثانية عشرة من عمره، وكان في طول دولته متغلبا عليه لا ينفذ له أمر. (راجع جذوة المقتبس للحميد، ص. ١٧).

[٤] هو الحكم بن عبد الرحمن الناصر، ويلقب بالمستنصر بالله. ولي الخلافة وله سبع وأربعين سنة، كان حصن السيرة، جامعا للعلوم ومحبا له، مكرما لأهلها. (راجع جذوة

[٥] د. محمود علي حماية، ابن حزم ومنهجه في دراسة الأديان، دار المعارف القاهرة سنة ١٩٨٣، ص. ١٥.

[٦] د. عبد الحليم عويس، ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضارى، الزهراء للإعلام العربي سنة ١٤٠٩/١٩٨٨ن ص. ٣٤-٤٢.

[٧] تبقل: بقل وجه الغلام: بنت شعره، أنظر لسان العرب ٦١/١١. وورد في بعض الطبعات "تَفَيَّل" وهي بمعنى سمن واكتهلن أنظر لسان العرب، ٥٣٤/١١.

[٨] ابن حزم، طوق الحمامة، تعليق نزار وحيه فلوح، المكتبة العصرية بيروت، سنة ٢٠٠١، ص. ١١١-١١٢.

[٩] المرجع السابق، ص. ١٥٥.

[١٠] الحميدي، جذوة المقتبس، دار المصرية للتأليف والترجمة سنة ١٩٦٦، ص. ١٢٣.

[١١] د. عبد الحليم عويس، ابن حزم، المرجع السابق، ص. ٥٧.

[١٢] د. محمود علي حماية، ابن حزم، المرجع السابق، ص. ٥٦.

[١٣] ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق د.إحسان عباس، دار الصادر للطبعة والنشر، بيروت، ٣٢٨/٣.

[١٤] ابن حزم، الأخلاق والسير في مداواة النفوس، تحقيق وتقديم وتعليق د/الطاهر أحمد مكي ط.٢، دار المعارف، القاهرة، ص. ٩٣.

[١٥] المرجع السابق، ص. ١٣٥.

[١٦] المرجع السابق، الموضع نفسه

[١٧] عبد اللطيف شرارة، ابن حزم رائد الفكر العلمي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر، ص. ١٠٦.

[١٨] ابن حزم، الأخلاق والسير، المرجع السابق، ص. ١٣٥.

[١٩] المرجع السابق، ص. ٨٧.

[٢٠] المرجع السابق، الموضع نفسه.

[٣١] المرجع السابق، ص. ٨٧-٨٨.

[٣٢] المرجع السابق، ص. ٨٨-٨٩.

[٣٣] المرجع السابق، ص. ٩٢.

[٣٤] المرجع السابق، ص. ٩٢-٩٣

[٣٥] المرجع السابق، ص. ٩٣.

[٣٦] إذ أن مقياس الخير عند أبيقور اللذة ومفارقة الألم،... والأصل في كل فعل أخلاقي أن يتجه إلى تحصيل اللذة وتجنب الألم..ويصنف أبيقور اللذة إلى ثلاثة أنواعز وفي رأيه أن الحكيم هو الذي يتعلق بالنوع الأول منها فقط وهي النتيجة عن إشباع الحاجة الأولية للكائن الحي، أنظر مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق. د. توفيق الطويل، مكتبة النهضة المصرية – القاهرة، ص. ١ ١٩٥٣، ص. ٢٢.

[٣٧] ابن حزم، الأخلاق والسير، المرجع السابق، ص. ٩٦.

[٣٨] المرجع السابق، ص. ٩٨.

[٣٩] المرجع السابق، ص. ١١١.

[٤٠] توفيق الطويل، الفلسفة الخلقية، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٧، ص. ٣٤.

[٤١] ابن حزم، المرجع السابق، الأخلاق والسير، ص. ١١٠.

[٤٢] المرجع السابق، ص. ١٠١.

[٤٣] المرجع السابق، ص. ١٣٥.

[٤٤] المرجع نفسه.

[٤٥] المرجع السابق، ص. ٢٢٨

[٤٦] المرجع السابق، ص. ٢٢٨-٢٢٩

[٤٧] المرجع السابق، الموضع نفسه

[٤٨] المرجع السابق، ص. ٢٣٣

[٤٩] المرجع السابق، الموضع نفسه.

[٥٠] المرجع السابق، ص. ٢٣٠.

[٥١] المرجع السابق، ص. ٢٣٥.

[٥٢] المرجع السابق، ص. ١٥٤.

[٥٣] المرجع السابق، ص. ١٩١.

[٥٤] المرجع السابق، ص. ١١٤

[٥٥] المرجع السابق، ص. ٢٣٦.